ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾

تقدمت المناداة قبل ذلك مرتين ومع ذلك لا يوجد تكرار لهذا المعنى ؛ لأن كلَّ نداء منها له مقصوده الخاص ، فالنداء فى الأولى خاص بمَنْ أشركوهم مع الله وما قالوه أمام الله تعالى : ﴿ رَبَّنَا هَـٰؤُلاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا .. ﴿٦٣﴾ ﴾ [القصص]

أما الثانية ، فالنداء فيها للمشركين ﴿ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾[القصص]

أما هنا ، فيهتم النداء بمسألة الشهادة عليهم . إذن : فكلمة (أين) و (شركائى) و (الذين كنتم تزعمون) قَدْر مشترك بين الآيات الثلاثة ، لكن المطلوب فى كل قَدْر غير المطلوب فى القَدْر الآخر ، فليس فى الأمر تكرار ، إنما توكيد فى الكل[1] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٥١٩٦/٧) : « المناداة هنا ليست من الله ، لأن الله تعالى لا يكلم الكافر لقوله تعالى ﴿ وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .. ﴿١٧٤﴾ ﴾ [البقرة] لكنه تعالى يأمر مَنْ يوبخهم ويُبكّتهم ، ويقيم الحجة عليهم فى مقام الحساب . وقيل : يحتمل أن يكون من الله وقوله ﴿ وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .. ﴿١٧٤﴾ ﴾ [البقرة] حين يُقال لهم ﴿ اخْسَئُوا فِيهَا وَلا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [المؤمنون] .

أى : أخرجنا من كل أمة نبيَّها ، وأحضرناه ليكون شاهداً عليها ﴿ فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ .. (٧٥) ﴾ [القصص] أرونا شركاءكم الذين اتخذتموهم من دون الله ، أين هم ليدافعوا عنكم ؟ لكن هيهات ، فقد ضلُّوا عنهم ، وهربوا منهم .

﴿ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لا يَتَسَاءَلُونَ (٦٦) ﴾ [القصص]

إذن : غاب شركاؤكم ، وغاب شهودكم ، لكن شهودنا موجودون ﴿ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً .. (٧٥) ﴾ [القصص] يشهد أنه بلَّغهم منهج الله فإنْ قُلْتم : لقد أغوانا الشيطان وأغوانا المضلون من الإنس ، نردّ عليكم بأننا ما تركناكم لإغوائهم ، فيكون لكم عذر ، إنما أرسلنا إليكم رسلاً لهدايتكم ، وقد بلَّغكم الرسل .

وفى موضع آخر يقول تعالى : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَـٰؤُلاءِ شَهِيداً (٤١) ﴾ [النساء]

فماذا يكون موقفهم يوم تشهد أنت عليهم بأنك بلَّغت ، وأعذرتَ فى البلاغ ، وأنك اضطهدت منهم ، وأوذيت ، وقد ضلَّ عنهم شركاؤهم ، ولم يجدوا مَنْ يشهد لهم أو يدافع عنهم ؟ عندها تسقط أعذارهم وتكون المحكمة قد (تنوَّرت) .

ثم يقول تعالى : ﴿ فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ .. (٧٥) ﴾ [القصص] أى : قولوا : إن رسلنا لم يُبلِّغوكم منهجنا ، وهاتوا حجة تدفع عنكم ، فلما تحيَّروا وأُسقط فى أيديهم حيث غاب شهداؤهم وحضر الشهداء عليهم ﴿ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ .. (٧٥) ﴾ [القصص]

وفوجئوا كما قال تعالى عنهم : ﴿ وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ .. (٣٩) ﴾ [النور]

وقال : ﴿ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا .. (٤٩) ﴾ [الكهف]

فوجئوا بما لم يُصدِّقوا به ولم يؤمنوا به ، لكن ما وجه هذه المفاجأة ، وقد أخبرناهم بها فى الدنيا وأعطيناهم مناعة كان من الواجب أنْ يأخذوا بها ، وأنْ يستعدوا لهذا الموقف ، فالعاقل حين تُحذره من وعورة الطريق الذى سيسلكه وما فيه من مخاطر وأهوال ينبغى عليه أنْ ينصرفَ عنه ، إنْ كان الناصح له صادقاً ، ولا عليه حين يحتاط لنفسه أنْ يكون ناصحه كاذباً ، على حَدِّ قول الشاعر :

زَعَم المنجِّمُ والطبيبُ كلاهُما ... لا تُبعَثُ الأجسَادُ قُلْتُ إليكُما
إن صَحَّ قولكُمَا فلستُ بخاسِرٍ ... أوْ صَحَّ قَوْلى فالخسَار عليكُما

وما عليك إنْ حملتَ بندقيةً فى هذا الطريق المخوف ، ثم لم تجد شيئاً يخيفك ؟ إذن : أنتم إنْ لم تخسروا فلن تكسبوا شيئاً ، ونحن إنْ لم نكسب لن نخسر .

وقوله : ﴿ وَضَلَّ عَنْهُم .. (٧٥) ﴾ [القصص] أى : غاب ﴿ مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٧٥) ﴾ [القصص] من ادّعاء الشركاء .

بعد أن أعطانا الحق ـ تبارك وتعالى ـ لقطة من لقطات يوم القيامة ، والقيامة لا تخيف إلا مَنْ يؤمن بها ، أما مَنْ لا يؤمن بالآخرة والقيامة فلا بُدَّ له من رادع آخر ؛ لأن الحق سبحانه يريد أنْ يحمى صلاح الكون وحركة الحياة .

ولو اقتصر الجزاء على القيامة لعربد غير المؤمنين واستشرى فسادهم ، ولَشقى الناس بهم ، والله تعالى يريد أنْ يحمى حركة الحياة من المفسدين من غير المؤمنين بالآخرة ، فيجعل لهم عذاباً فى الدنيا قبل عذاب الآخرة .

يقول تعالى : ﴿ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ .. (٤٧) ﴾ [الطور]

يعنى : قبل عذاب الآخرة .

فالذى يقع للكفار فى الدنيا رَدْع لكل ظالم يحاول أنْ يعتدى ، وأنْ يقف فى وجه الحق ؛ لذلك يعطينا ربنا - عز وجل - صورة لهذا العذاب الدنيوى للمفسدين فى الأرض ، فيقول سبحانه :

﴿ إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ(1) فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ(2) بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾

فلم يتكلم عن قارون وجزائه فى الآخرة ، إنما يجعله مثلاً وعبرة واضحة فى الدنيا لكل مَنْ لم يؤمن بيوم القيامة لعلَّه يرتدع .

والنبى ﷺ اضطهده كفار قريش ، ووقفوا فى وجه دعوته ، وآذوْا صحابته ، حتى أصبحوا غير قادرين على حماية أنفسهم ، ومع ذلك ينزل القرآن على رسول الله يقول : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [القمر]

فيتعجب عمر رضى الله عنه : أىُّ جمع هذا ؟ فنحن غير قادرين على حماية أنفسنا ، فلما وقعتْ بدر وانهزم الكفار وقُتلوا . قال

---

(١) قال ابن عباس : كان ابن عمه ، وهكذا قال إبراهيم النخعى وعبد الله بن الحارث بن نوفل وسماك بن حرب وقتادة ومالك بن دينار وابن جريج وغيرهم أنه كان ابن عم موسى عليه السلام . وزعم ابن إسحاق أن قارون كان عم موسى بن عمران . [قاله ابن كثير فى تفسيره ٣/٣٩٨] .

(٢) ناء الرجل بالحمْل : نهض به متثاقلاً فى جهد ومشقة . أى : تثقل عليهم وتجهدهم وهذا كناية عن كثرة كنوز قارون . [القاموس القويم ٢/٢٩٠] .

عمر[1] : نعم صدق الله ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) ﴾ [القمر]

لذلك يقولون : لا يموت ظالم في الدنيا حتى ينتقم الله منه ، ويرى فيه المظلوم يوماً يشفي غليله ، ولما مات ظلوم في الشام ولم يَرَ الناس فيه ما يدل على انتقام الله منه تعجّبوا وقال أحدهم : لا بُدَّ أن الله انتقم منه دون أن نشعر ، فإنْ أفلتَ من عذاب الدنيا ، فوراء هذه الدار دار أخرى يعاقب فيها المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته ، وعَدْل الله - عز وجل - يقتضي هذه المحاسبة .

والحق - تبارك وتعالى - يجعل من قارون عبرةً لكل مَنْ لا يؤمن بالآخرة ليخاف من عذاب الله ، ويحذر عقابه ، والعبرة هنا بمَنْ ؟ بقارون رأس من رؤوس القوم ، وأغنى أغنيائهم ، والفتوة فيهم ، فحين يأخذه الله يكون في أَخْذه عبرة لمن دونه .

وحدَّثونا أن صديقاً لنا كان يعمل بجمرك الأسكندرية ، فتجمّع عليه بعض زملائه من الفتوات الذين يريدون فَرْضَ سيطرتهم على الآخرين ، فما كان منه إلا أنْ أخذ كبيرهم ، فألقاه في الأرض ، وعندها تفرّق الآخرون وانصرفوا عنه .

ومن هذا المنطلق أخذ الله تعالى قارون ، وهو الفتوة ، ورمز الغنى والجاه بين قومه ، فقال تعالى : ﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ .. (٧٦) ﴾ [القصص] إذن : حينما نتأمل حياة موسى عليه السلام نجده قد مُنِي بصناديد الكفر ، فقد واجه فرعون الذي ادَّعى الألوهية ، وواجه هامان ، ثم موسى السامري الذي خانه في قومه في غيبته ، فدعاهم إلى عبادة العجل .

---

(١) أورد ابن كثير في تفسيره (٢٦٦/٤) وعزاه لابن أبي حاتم عن عكرمة قال : « لما نزلت : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) ﴾ [القمر] قال عمر : أيّ جمع يهزم ؟ أي : أيّ جمع يُغلب ؟ قال عمر : فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله ﷺ يثب في الدرع وهو يقول « سيُهزم الجمع ويولون الدبر » ، فعرفت تأويلها يومئذ » .

ومُنى من قومـه بقارون ، ومعنى : من قومـه ، إما لأنه كان من رحمـه من بنى إسرائيل ، أو من قومه يـعنى : الذين يعيشون مـعه . والقـرآن لم يتعـرض لهذه المـسألة بأكـثر من هذا ، لكن المـفسـرين يقولون : إنه ابن عـمه . فهـو : قارون بن يصـهـر بن قاهث بن لاوى ابن يعقوب و موسى هو ابن عمران بن قاهث بن لاوى بن يعقوب .

وللمؤرخين كلام فى العداوة بين مـوسى وقارون ، قالوا : حينما سأل مـوسى عليه السلام ربه أنْ يشـدَّ عضده بأخيـه هارون ، أجابه سبحانه ﴿ **قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَـٰمُوسَىٰ** (٣٦) ﴾ [طه] وليست هذه أول مرة بل ﴿ **وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ** (٣٧) ﴾ [طه] وأرسل الله معه أخاه هارون ؛ لأنه أفـصح من مـوسى لـساناً ، وجـعلهـمـا شـريكين فى الرسالة ، وخـاطبهـما مـعاً ﴿ **اذْهَبَا ..** (٤٣) ﴾ [طه] ليؤكـد أنَّ الرسالة ليست من باطن موسى .

وإنْ رأيت الخطاب فى القـرآن لموسى بمفـرده ، فاعلم أن هارون مُلاحَظ فـيه ، ومن ذلك لمـا دعا مـوسى على قوم فـرعون ، فـقال : ﴿ **رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ** (٨٨) ﴾ [يونس]

فالذى دعـا موسى ، ومع ذلـك لما أجابـه ربه قال : ﴿ **قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا ..** (٨٩) ﴾ [يونس] وهذا دليل على أن هارون لم يكن رسولاً من باطن موسى ، إنما من الحق سبحانه ، وأيضاً دليل على أن المؤمِّن على الدعاء كالداعى ، فكان موسى يدعو وهارون يقول : آمين .

ولما ذهب مـوسى لميـقات ربه قال لأخـيه ﴿ **اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي ..** (١٤٢) ﴾ [الأعراف] وفى غيـبة مـوسى حدثتْ مـسألة العـجل ، وغضب

موسى من أخيه هارون ، فلما هدأتْ بينهما الأمور حدث تخصيص فى رسالة كل منهما ، فأعطى هارون (الحبورة) والحَبْر : هو العالم الذى يُعَد مرجعاً ، كما أُعطِى (القربان) أى : التقرب إلى الله .

وعندها غضب قارون ؛ لأنه خرج من هذه المسألة صُفْر اليدين ، وامتاز عنه أولاد عمومته بالرسالة والمنزلة ، رغم ما كان عنده من أموال كثيرة .

ثم إن موسى - عليه السلام - طلب من قارون زكاة ماله ، دينار فى كل ألف دينار ، ودرهم فى كل ألف درهم ، فرفض قارون وامتنع ، بل وألَّبَ الناس ضد موسى - عليه السلام[1] .

ثم دبَّر له فضيحة ؛ ليصرف الناس عنه ، حيث أغرى امرأة بغياً فأعطاها طستْاً مليئاً بالذهب ، على أن تدَّعى على موسى وتتهمه ، فجاء موسى عليه السلام ليخطب فى الناس ، ويُبيِّن لهم الأحكام فقال : مَنْ يسرق نقطع يده ، ومَنْ يزنى نجلده إن كان غير محصن ، ونرجمه إنْ كان محصناً ، فقام له قارون وقال : فإن كنتَ أنت يا موسى ؟ فقال : وإنْ كنتُ أنا .

وهنا قامت المرأة البغىُّ وقالت : هو راودنى عن نفسى ، فقال لها : والذى فلق البحر لَتقُولنَّ الصدق فارتعدتْ المرأة ، واعترفت بما دبَّره قارون ، فانفضح أمره وبدأت العداوة بينه وبين موسى عليه السلام .

وبدأ قارون فى البَغْى والطغيان حتى أخذه الله ، وقال فى

(١) أخرج ابن أبى شيبة فى المصنف وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه عن ابن عباس أن موسى عليه السلام قال لقارون : إن الله أمرنى أن آخذ الزكاة ، فأبى فقال : إن موسى عليه السلام يريد أن يأكل أموالكم ، جاءكم بالصلاة ، وجاءكم بأشياء فاحتملتموها ، فتحملوه أن تعطوه أموالكم ؟ قالوا : لا نحتمل ، فما ترى ، فقال لهم : أرى أن أرسل إلى بغى من بغايا بنى إسرائيل ، فترسلها إليه فترميه بأنه أرادها على نفسها . [أورده السيوطى فى الدر المنثور ٦/٤٣٦] .

حـقـه هذه الآيات : ﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ .. (٧٦) ﴾ [القصص]

والبغى : تجاوز الحدّ فى الظلم ، خـاصة وقد كان عنده من المال ما يُعينه على الظلم ، وما يُسخِّر به الناس لخدمة أهدافه ، وكأنه يمثل مركز قـوة بين قومه ، والبغى إما بـالاستيلاء على حقـوق الغير ، أو باحتقارهم وازدرائهم ، وإما بالبطر .

ثم يذكر حيثـية هذا البغى : ﴿ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ .. (٧٦) ﴾ [القصص]

كلمة (مـفاتح) كما فى قـوله تعالى : ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ .. (٥٩) ﴾ [الأنعام]

ولو قلنا : مفاتح جمع ، فما مفـردها ؟ لا تقُلْ مفتاح ؛ لأن مفتاح جمـعها مـفاتيح ، أما مـفاتح ، فـمفردها (مَـفْتح)[1] وهى آلة الفتح كالمـفتـاح ، وهى على وزن (مبـرد) فالمـعنى : أن مفاتيـح خزائنه لو حملتْها عصبـة تنوء بها ، وهذه كناية عن كثرة أمواله ، نقول : ناء به الحمْل ، أو ناء بالحمل ، إذا ثقُل عليه ، ونحن لا نـميز الخفيف من الثقيل بالعين أو اللمس أو الشم إنما لا بُدَّ من حمله للإحساس بوزنه.

وقلنا : إن هذه الحاسة هى حاسة العضَل ، فـالحمْل الثقيل يُجهد العضلة ، فتـشعر بالثقل ، على خلاف لو حـملتَ شيئاً خفـيفاً لا تكاد تشـعر بوزنه لخـفّتـه ، ولو حـاولتَ أنْ تجمع أوزاناً فى حـيز ضـيق كحقيبة (هاندباج) فإن الثقل يفضـحك ؛ لأنك تنوء به .

والعُصْـبة : هم القوم الذين يتـعصَّبـون لمبدأ من المـبادىء بدون

(١) المـفتح : الخـزانة . قال الأزهـرى : كل خزانة كـانت لصنف من الأشـياء ، فـهى مَفْتح ، والمفتح : الكنز . قيل : هى الكنوز والخزائن . قال الزجاج : روى أن مفاتحه خزائنه . قال الأزهرى : والأشبـه فى التفسيـر أن مفـاتحه خـزائن ماله . والله أعلم بمـا أراد . [لسـان العرب ـ مادة : فتح] .

هَوىً بينهم ، ومنه قول إخوة يوسف : ﴿ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ .. ⑧ ﴾ [يوسف]

إنها كلمة حق خرجت من أفواههم دون قصد منهم ؛ لأنهم فعلاً كانوا قوةً متعصبين بعضهم لبعض فى مواجهة يوسف وأخيه ، وكانا صغيرين لا قوةَ لهما ولا شوكة ، وكانوا جميعاً من أم واحدة ، ويوسف وأخوه من أم أخرى[1] ، فطبيعى أن يميل قلب يعقوب عليه السلام مع الضعيف .

وقالوا : العصبة من الثلاثة إلي العشرة ، وقد حددهم القرآن بقوله : ﴿ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا .. ④ ﴾ [يوسف] وهم إخوته ومنهم بنيامين ﴿ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ .. ④ ﴾ [يوسف] أى : أباه وأمه . فمن هاتين الآيتين نستطيع تحديد العصبة .

وبهذا التفكير الذى يقوم على ضم الآيات بعضها إلى بعض حَلَّ الإمام على ـ رضى الله عنه ـ مسألة تُعدُّ معضلة عند البعض ، حيث جاءه مَنْ يقول له : تزوجتُ امرأة وولدتْ بعد ستة أشهر ، ومعلوم أن المرأة تلد لتسعة أشهر ، فلا بُدَّ أنها حملت قبل أنْ تتزوج .

فقال الإمام على : أقل الحمل ستة أشهر ، فقال السائل : ومن أين تأخذها يا أبا الحسن ؟ قال : نأخذها من قوله تعالى : ﴿ وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا .. ⑮ ﴾ [الأحقاف] وفى آية أخرى قال سبحانه : ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ .. ②③③ ﴾ [البقرة]

يعنى : أربعة وعشرين شهراً ، وبطرح الأربعة والعشرين شهراً من الثلاثين يكون الناتج ستة أشهر ، هى أقل مدة للحمل . وهكذا

---

(١) تزوج يعقوب أولاً ليئة بنت لابان ، ثم تزوج أختها الصغرى راحيل ، جمع بينهما ، لأنه كان مباحاً فى شريعتهم وقد ولدت له ليئة ٦ بنين (رأوبين ، شمعون ، لاوى ، يهوذا ، يسَّاكر ، زبولون) وبنتاً واحدة (دينة) . وولدت له راحيل ولدين : يوسف وبنيامين . وولدت له سريته « بلهة » ولدين : دان ، ونفتالى . وولدت له سريته « زلفة » ولدين : جاد ، وأشير . ذلك ما ذكرته التوراة فى [سفر التكوين : الأصحاح ٣٥ : ٢٢ – ٢٦] .

تتكاتف آيات القرآن ، ويكمل بعضها بعضاً ، ومن الخطأ أن نأخذ كل آية على حدة ، ونفصلها عن غيرها فى ذات الموضوع .

ثم يقول سبحانه : ﴿إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٧٦)﴾ [القصص] والنهى هنا عن الفرح المحظور ، فالفرح : انبساط النفس لأمر يسرُّ الإنسان ، وفَرْق بين أمر يسرُّك ؛ لأنه يُمتعك ، وأمر يسرُّك لأنه ينفعك ، فالمتعة غير المنفعة .

فمثلاً ، مريض السكر قد يأكل المواد السكرية لأنها تُحدث له متعة ، مع أنها مضرة بالنسبة له ، إذن : فالفرح ينبغى أن يكون بالشىء النافع ، لأن الله تعالى لم يجعل المتعة إلا فى النافع .

فحينما يقولون له ﴿لا تَفْرَحْ .. (٧٦)﴾ [القصص] أى : فرح المتعة ، وإنما الفرح بالشىء النافع ، ولو لم تكن فيه متعة كالذى يتناول الدواء المر الذى يعود عليه بالشفاء ، لذلك يقول تعالى : ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا .. (٥٨)﴾ [يونس]

ويقول تعالى : ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (٤) بِنَصْرِ اللَّهِ .. (٥)﴾ [الروم] فسماه الله فرحاً ؛ لأنه فرح بشىء نافع ؛ لأن انتصار الدعوة يعنى أن مبدءك الذى آمنتَ به ، وحاربت من أجله سيسيطر وسيعود عليك وعلى العالم بالنفع .

ومن فرح المتعة المحظور ما حكاه القرآن : ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلافَ رَسُولِ اللَّهِ .. (٨١)﴾ [التوبة] هذا هو فرح المتعة ؛ لأنهم كارهون لرسول الله ، رافضون للخروج معه ، ويسرُّهم قعودهم ، وتركه يخرج للقتال وحده .

فقوله تعالى : ﴿لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٧٦)﴾ [القصص]

أى : فرح المتعة الذى لا ينظر إلى مَغَبّة الأشياء وعواقبها ، فشارب الخمر يشربها لما لها من متعة مؤقتة ، لكن يتبعها ضرر بالغ ، ونسمع الآن مَنْ يقول عن الرقص مثلاً : إنه فن جميل وفن راقٍ ؛ لأنه يجد فيه متعة ما ، لكن شرط الفن الجميل الراقى أن يظل جميلاً ، لكن أنْ ينقلب بعد ذلك إلى قُبْح ويُورث قبحاً ، كما يحدث فى الرقص ، فلا يُعَدُّ جميلاً .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾

معنى ﴿ وَابْتَغِ .. ﴿٧٧﴾ ﴾ [القصص] أى : اطلب ﴿ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ .. ﴿٧٧﴾ ﴾ [القصص] بما أنعم عليك من الرزق ﴿ الدَّارَ الْآخِرَةَ .. ﴿٧٧﴾ ﴾ [القصص] لأنك إن ابتغيتَ برزق الله لك الحياة الدنيا ، فسوف يَفْنى معك فى الدنيا ، لكن إنْ نقلتَهُ للآخرة لأبقيتَ عليه نعيماً دائماً لا يزول .

وحين تحب نعيم الدنيا وتحتضنه وتتشبث به ، فاعلم أن دنياك لن تمهلك ، فإما أنْ تفوت هذا النعيمَ بالموت ، أو يفوتك هو حين تفتقر . إذن : إن كنت عاشقاً ومُحباً للمال ولبقائه فى حَوْزتك ، فانقله إلى الدار الباقية ، ليظل فى حضنك دائماً نعيماً باقياً لا يفارقك ، فسارع إذن واجعله يسبقك إلى الآخرة .

وفى الحديث الشريف لما سأل رسول الله ﷺ أم المؤمنين عائشة

عن الشاة التى أُهديَتْ له قالت بعد أن تصدقت بها : ذهبتْ إلا كتفها ، فقال ﷺ : « بل بقيتْ إلا كتفها »(١) .

ويقول ﷺ : « ليس لك من مالك إلا ما أكلتَ فأفنيتَ ، أو لبستَ فأبليتَ ، أو تصدقْتَ فأبقيْتَ »(٢) .

لذلك كان أولو العزم حين يدخل على أحدهم سائل يسأله ، يقول له : مرحباً بمَنْ جاء يحمل زادى إلى الآخرة بغير أجرة .

والإمام على - رضى الله عنه - جاءه رجل يسأله : أأنا من أهل الدنيا ، أم من أهل الآخرة ؟ فقال : جواب هذا السؤال ليس عندى ، بل عندك أنت ، وأنت الحكم فى هذه المسألة . فإنْ دخل عليك مَنْ تعودت أنه يعطيك ، ودخل عليك مَنْ تعودت أنْ يأخذ منك ، فإنْ كنتَ تبشُّ لمن يعطى ، فأنت من أهل الدنيا ، وإنْ كنتَ تبشُّ لمَنْ يسألك ويأخذ منك ، فأنت من أهل الآخرة ، لأن الإنسان يحب من يعمر له ما يحب ، فإنْ كنتَ محباً للدنيا فيسعدك مَنْ يعطيك ، وإنْ كنتَ محباً للآخرة فيسعدك مَنْ يأخذ منك .

وإذا كان ربنا - عز وجل - يوصينا بأن نبتغى الآخرة ، فهذا لا يعنى أن نترك الدنيا : ﴿وَلاَ تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا .. (٧٧)﴾ [القصص] لكن هذه الآية يأخذها البعض دليلاً على الانغماس فى الدنيا ومتعها .

وحين نتأمل ﴿وَلاَ تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا .. (٧٧)﴾ [القصص] نفهم

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٦/ ٥٠) والترمذى فى سننه (٢٤٧٠) من حديث عائشة رضى الله عنها . قال الترمذى « حديث صحيح » .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (٤/ ٢٤ ، ٢٦) ، ومسلم فى صحيحه (٢٩٥٨) ، والترمذى فى سننه (٢٣٤٢) وصححه .

أن العاقل كان يجب عليه أنْ ينظر إلى الدنيا على أنها لا تستحق الاهتمام ، لكن ربه لفته إليها ليأخذ بشيء منها تقتضيه حركة حياته . فالمعنى : كان ينبغى علىَّ أنْ أنساها فذكَّرنى الله بها .

ولأهل المعرفة فى هذه المسألة ملْمح دقيق : يقولون : نصيبك من الشيء ما ينالك منه ، لا عن مفارقة إنما عن ملازمة ودوام ، وعلى هذا فنصيبك من الدنيا هو الحسنة التى تبقى لك ، وتظل معك ، وتصحبك بعد الدنيا إلى الآخرة ، فكأن نصيبك من الدنيا يصُبُّ فى نصيبك من الآخرة ، فتخدم دنياك آخرتك .

أو : يكون المعنى موجهاً للبخيل الممسك على نفسه ، فيُذكِّره ربه ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا .. (٧٧)﴾ [القصص] يعنى : خُذْ منها القَدْر الذى يعينك على أمر الآخرة . لذلك قالوا عن الدنيا : هى أهم من أن تُنْسى - لأنها الوسيلة إلى الآخرة - وأتفه من أن تكون غاية ؛ لأن بعدها غاية أخرى أبقى وأدوم[1] .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ .. (٧٧)﴾ [القصص] الحق سبحانه يريد أنْ يتخلَّق خَلْقه بخُلُقه ، كما جاء فى الأثر « تخلقوا بأخلاق الله ».

فكما أحسن الله إليك أحسِنْ إلى الناس ، وكما تحب أنْ يغفر الله

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٥٢٠١/٧) : « قوله تعالى : ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا .. (٧٧)﴾ [القصص] اختلف فيه .

فقال ابن عباس والجمهور : لا تضيع عمرك فى ألا تعمل عملاً صالحاً فى دنياك ، إذ الآخرة إنما يُعمل لها ، فنصيب الإنسان عمره وعمله الصالح فيها ، فالكلام على هذا التأويل شدة فى الموعظة .

- وقال الحسن وقتادة : معناه لا تُضيع حظك من دنياك فى تمتعك بالحلال وطلبك إياه ، ونظرك لعاقبة دنياك . فالكلام على هذا التأويل فيه بعض الرفق به وإصلاح الأمر الذى يشتهيه ، وهذا مما يجب استعماله مع الموعوظ خشية النبوة من الشدة ، قاله ابن عطية » .

لك ، اغفر لغيرك إساءته ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ .. (٢٢)﴾ [النور]

وما دام ربك يعطيك ، فعليك أنْ تعطى دون مخافة الفقر ؛ لأن الله تعالى هو الذى استدعاك للوجود ؛ لذلك تكفَّل بنفقتك وتربيتك ورعايتك . لذلك حين ترى العاجز عن الكسب - وقد جعله ربه على هذه الحال لحكمة - حين يمد يده إليك ، فاعلم أنه يمدُّها لله ، وأنك مناول عن الله تعالى .

ونلحظ هذا المعنى فى قوله تعالى : ﴿مَن ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً .. (١١)﴾ [الحديد]

فسمَّى الصدقة قرضاً لله ، لماذا ؟ لأن هذا العبد عبدى ، مسئول منى أن أرزقه ، وقد ابتليتُه لحكمة عندى - حتى لا يظنّ أحد أن المسألة ذاتية فيه ، فيعتبر به غيره - فمَنْ إذن يقرضنى لأسُدَّ حاجة أخيكم ؟

وقال تعالى : ﴿يُقْرِضُ اللَّهَ .. (١١)﴾ [الحديد] مع أنه سبحانه الواهب ؛ لأنه أراد أن يحترم ملكيتك ، وأن يحترم انتفاعك وسَعْيك .. كما لو أراد والد أنْ يُجرِى لأحد أبنائه عملية جراحية مثلاً وهو فقير وإخوته أغنياء ، فيقول لأولاده : اقرضونى من أموالكم لأجرى الجراحة لأخيكم ، وسوف أردُّ عليكم هذا القرض .

وفى الحديث الشريف أن سيدنا رسول الله ﷺ دخل على ابنته فاطمة - رضوان الله عليها - فوجدها تجلو درهماً فسألها : ماذا تصنعين به » ؟ قالت : أجلوه ، قال : « لِمَ » ؟ قالت : لأنى نويت أن أتصدق به ، وأعلم أنه يقع فى يد الله قبل أن يقع فى يد الفقير .

إذن : فالمال مال الله ، وأنت مناول عن الله تعالى .

وقد وقف بعض المستشرقين عند هذه المسألة ؛ لأنهم يقرأون الآيات والأحاديث مجرد قراءة سطحية غير واعية ، فيتوهمون أنها متضاربة . فقالوا هنا : الله تعالى يقول : ﴿مَن ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ .. (١١)﴾ [الحديد]

وقال فى موضع آخر : ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا .. (١٦٠)﴾ [الأنعام] وفى الحديث الشريف : « مكتوب على باب الجنة : الصدقة بعشر أمثالها ، والقرض بثمانية عشر »(١) .

فظاهر الحديث يختلف مع الآية الكريمة - هذا فى نظرهم - لأنهم لا يملكون الملَكة العربية فى استقبال البيان القرآنى . وبتأمل الآيات والأحاديث نجد اتفاقهما على أن الحسنة أو الصدقة بعشر أمثالها ، فالخلاف - ظاهراً - فى قوله تعالى : ﴿فَيُضَاعِفَهُ لَهُ .. (١١)﴾ [الحديد] وقول النبى ﷺ : « والقرض بثمانية عشر » .

وليس بينهما اختلاف ، فساعة تصدَّق الإنسان بدرهم مثلاً أعطاه الله عشرة منها الدرهم الذى تصدَّق به ، فكأنه أعطاه تسعة ، فحين تُضَاعف التسعة ، تصبح ثمانية عشرة .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِى الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (٧٧)﴾ [القصص] والفساد يأتى من الخروج عن منهج الله ،

---

(١) عن أبى أمامة عن رسول الله ﷺ قال : « دخل رجل الجنة فرأى على بابها مكتوباً الصدقة بعشرة أمثالها ، والقرض بثمانية عشر » . أورده الهيثمى فى مجمع الزوائد (٤/١٢٦) وعزاه للطبرانى فى المعجم الكبير وقال : « فيه عتبة بن حميد وثقه ابن حبان وغيره وفيه ضعف » .

وعن أنس بن مالك قال قال رسول الله ﷺ : « رأيت ليلة أسرى بى مكتوباً على باب الجنة : الصدقة بعشر أمثالها ، والقرض ثمانية عشر ، فقلت لجبريل : ما للقرض أفضل من الصدقة ؟ قال : لأن السائل يسأل وعنده ، والمستقرض لا يستقرض إلا من حاجة » أخرجه أبو نعيم فى الحلية (٨/٣٣٢) .

فإنْ غيَّرت فيه فقد أفسدتَ ، فالفساد كما يكون في المادة يكون في المنهج ، وفي المعنويات ، يقول سبحانه : ﴿ **وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا ..** ﴿٥٦﴾ ﴾ [الأعراف]

فالحق سبحانه خلق كل شيء على هيئة الصلاح لإسعاد خلقه ، فلا تعمد إليه أنت فتفسده ، ومن هذا الصلاح المنهج ، بل المنهج وهو قوام الحياة المعنوية ـ أَوْلَى من قوام الحياة المادية .

إذن : فلتكُنْ مؤدباً مع الكون من حولك ، فإذا لم تستطع أنْ تزيده حُسْناً فلا أقلَّ من أنْ تدعه كما هو دون أنْ تفسده ، وضربنا لذلك مثلاً ببئر الماء قد تعمد إليه فتطمسه ، وقد تبني حوله سوراً يحميه .

هذه مسائل خمْس توجَّه بها قوم قارون لنصحه بها ، منها الأمر ، ومنها النهي ، ولا بُدَّ أنهم وجدوا منه ما يناقضها ، لا بُدَّ أنهم وجدوه بَطِراً أشِراً[1] مغروراً بماله ، فقالوا له : ﴿ **لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ** ﴿٧٦﴾ ﴾ [القصص]

ووجدوه قد نسي نصيبه من الدنيا فلم يتزود منها للآخرة ، فقالوا له ﴿ **وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ..** ﴿٧٧﴾ ﴾ [القصص] ، ووجدوه يضنُّ على نفسه فلا ينفق في الخير ، فقالوا له : ﴿ **وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ..** ﴿٧٧﴾ ﴾ [القصص] يعني : عَدِّ نعمتك إلى الغير ، كما تعدَّت نعمة الله إليك .. وهكذا ما أمروه أمراً ، ولا نهوْهُ نهياً إلا وهو مخالف له ، وإلا لَمَا أمروه ولَمَا نهوْهُ .

---

(١) الأشَر : البطر . وقيل : هو أشد البطر . والبطر : الطغيان في النعمة ، فهو بَطِر : لم يشكرها . [لسان العرب ـ مادتا : أشر ـ بطر] .

ثم يقول قارون رداً على هذه المسائل الخمس التى توجَّه بها قومه إليه :

﴿ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ مِن قَبۡلِهِۦ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مَنۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرُ جَمۡعٗاۚ وَلَا يُسۡـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾

لكن ما وجه هذا الردّ ﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي .. ﴿٧٨﴾ ﴾ [القصص] على المطلوبات الخمسة التى طلبوها منه ؟ كأنه يقول لهم : لا دخلَ لكم بهذه الأمور ؛ لأن الذى أعطانى المال علم أننى أهْلٌ له ، وأننى أستحقه ؛ لذلك ائتمننى عليه ، ولسْتُ فى حاجة لنصيحتكم .

أو يكون المعنى ﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي .. ﴿٧٨﴾ ﴾ [القصص] يعنى : بمجهودى ومزاولة الأعمال التى تُغل علىَّ هذا المال ، وكان قارون مشهوراً بحُسْن الصوت فى قراءة التوراة ، وكان حافظاً لها . وكان حسن الصورة ، وعلى درجة عالية بمعرفة أحكام التوراة .

فعجيب أن يكون عنده كل هذا العلم ويقول ﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي .. ﴿٧٨﴾ ﴾ [القصص] ولا يعلم أن الله قد أهلك من قبله قروناً كانوا أشدَّ منه قوة ، وأكثر منه مالاً وعدداً .

﴿ أَوَ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا .. ﴿٧٨﴾ ﴾ [القصص] فكيف فاتَتْه هذه المسألة مع علْمه بالتوراة ؟

ومعنى ﴿ أَوَ لَمْ يَعْلَمْ .. ﴿٧٨﴾ ﴾ [القصص] أى : من ضمن ما علم ﴿ مِنَ الْقُرُونِ .. ﴿٧٨﴾ ﴾ [القصص] أناس كانوا أكثر منه مالاً ، وقد